

«معالم جديدة في أدبنا المعاصر»

- ١ -

بين نقادنا الشباب ، يتميز الناقد فاضل ثامر بأسهامات نشطة متجانسة الفكر والمنهج ، متباعدة الموضوعات والمستويات ، فهذا الناقد الذي الصبور ، التقدمي المثقف ، الجريء التسامح ، النشط الكسول ، يواصل في كتابه : (معالم جديدة في أدبنا المعاصر) ما بدأه في دراسته (معالم جديدة في القصة العراقية) وبالنهج النقدي ذاته المنبثق عن رؤية ماركسية مجسدة في تعاليم وتقاليد المدرسة الواقعية الاشتراكية في الادب والنقد ، فهو ناقد ذو هاجس أدبي سياسي اجتماعي حضاري يحتشد له بمتابعة طيبة لتأريخ وعيون ومشكلات الادب التقدمي والاشتراكي عالميا وعربيا ، تظاهره ثقافة عامة وأدبية ممتازة منفتحة ، بقدر نسبي لكن واع مستفيد ومتحفظ ، على عيون ومراحل الادب والنقد العالمي ، أوربيا وأمريكا وعربيا .

للنقد الادبي عند فاضل ثامر وظيفة التوعية والرصيد والتعميل بدفع البذور الجديدة رغم تعقيداتها في الطريق الشمسية دون بيروقراطية أو استاذية ، فعلى قدر تعاطف أهمية وتأثير الادب في المسيرة السياسية والاجتماعية ، يتعاطف دور الناقد وتأثيره في تعزيز رؤيا ما ، أو رفض أخرى ، مستندا ، عبر منهج واضح متجانس متكرر أو معدل ، الى قاعدة ايدولوجية ثقافية تتخذ الادب موضوعا لهدف سياسي ، فتتجاهل قوانينه الخاصة حيناً ، وتعترف بها متفهمة حيناً آخر .. وينتهي ذلك الى مقررات مدرسية جاهزة تخدم الهدف والمرحلة مرة ، ونصح جمالي ينتهي الى (علم جمال ماركسي) مرة أخرى . وبين البدء الساذج والنهاية الصحيحة المقبولة ، يرسم الخط البياني لرحلة نقد الواقعية الاشتراكية متلازمة ومتفاعلة مع رحلة الفكر الماركسي ، ومسيرة المجتمع الاشتراكي الحضارية ، ومشكلات الثقافة الاشتراكية في كل مكان .

ولكن الماركسية ذاتها تؤكد دور (الظروف النوعية الخاصة) رغم وحدة المنطلق والفكر في صياغة الالامح القومية للادب والنقد . ان وحدة الهدف السياسي والقاعدة ايدولوجية لم تحل دون تجدد المشكلات الثقافية والنقدية ، وعلى نحو اكثر تعقيدا أحيانا ، بسبب العزلة الحضارية ، وظروف الكبت السياسي ، وطبيعة النشأة الجديدة الصعبة ، ومرحلة الاهداف وخصوصية المشكلات القديمة الموروثة دون حل آخر ترفضه الماركسية ذاتها ، والمشكلات الجديدة الناجمة عن اللقاء الامتكافي أو السهل أو الساذج مع الموروث القومي والادب المحلي أو العالمي . ان الحصيلة - الخليط هي ما طبع في الاغلب نتائج ادباء الواقعية الاشتراكية في العالم الثالث المستعبد والمتحرر والاشتراكي ، وما بدأت به الواقعية الاشتراكية في الادب العربي والعراقي المعاصر ، وما زالت تجاهد بنجاح أو تفشل لدفعها في طريق الانسجام والتجدد والانفتاح والابداع الذي يقضي الاصول ، عبر محاولات مخلصه أو توفيقية مشدودة ، ولكن بخبرة اكبر ، الى الاساس ذاته ، والاهداف ايدولوجية السياسية ذاتها . ان أبة خطوة موفقة للامام ما تزال تكتنز الخطوات القديمة أو تتعثر بها هنا وهناك . ان مشكلة الواقعية الاشتراكية في الثقافة البرجوازية وثقافتنا هي مشكلة الموروث والمعاصرة ، تلك التي وفق «لنقد السوفيتي» في ظل ثقافة مجتمع اشتراكي مستقر ، الى حلها عبر اسس علم الجمال الماركسي ، وبجهود (نقاد) كبار أساتذة منظرين ، وشباب أذكيا مخلصين . لكن نقد الواقعية الاشتراكية في أوروبا وبعض البلدان الاشتراكية الشرقية ، وبسبب الانحياز الاجتماعي والثقافي وتجدد مشكلات الادب المفقدة قديمة وجديدة ، ما زال يستقبل الاجتهاد والمراجعة والاضافة ، مما بعد ارتدادا وانسلاخا مرة ، واغناء ثريا يسهم فيه ادباء ونقاد ماركسيون

لا مذهبون مرة أخرى . ان الواقعية الاشتراكية في روسيا لم تعد ملاحظات وتعاليم ماركس وانجلز ولينين ، تلك التي تختلط فيها اللقطة الذكية بالمراجعة النقدية بالحلم الرائد المتطلع صوب ما يمكن ان يحققه الادب والنقد ، والخاصة لرؤيا فلسفية وهدف سياسي ، وانما هو يبدأ من القاعدة الواسعة في نقد غوركي فيبنى فوقها معالجات مستفيضة تغني المبادئ الفلسفية الثابتة باجتهادات موهوبة مستفيضة منفتحة تنكر (الطريقة الوحيدة الرديئة) . انه نقد بورسون وكراولين وبرميلوف ، وجيل من المخضرمين والشباب الماركسيين ... انه النقد الذي يبدأ من مقولة غوركي المنة : الادب قلب العالم ، كل أفراحه واحزانه واحلامه واماله وياسه وسخطه ، كل انفعالات الانسان اذ يواجه جمال الطبيعة ، كل مخاوفه اذ يواجه اسرار الطبيعة . انه نقد الواقعية الاشتراكية الرومانتيكية ، يستمد ملاحظة انجلز عن الطريق المعقد للحركة الاقتصادية بوصفها حركة ضرورية عبر كثرة لا تعد من (الصدف) ويستثمرها لرسم الطريق الاكثر تعقيدا للادب بوصفه ضرورة اكثر خصوصية وتعقيدا ، عبر كثرة لا تعد من (الصدف) المسعفة والمعوقة لانها صدف الظروف والموهبة في تفاعلها الشائك . ان رحلة هذا التراث النقدي ليست فقط رحلة العودة الى نقد الديمقراطيين الروس ، لكنه ايضا رحلة الماركسية الخصبة في ظل المجتمع الاشتراكي النامي والمستقر ، من نقد - السلاح المكافح ، الى نقد الاضواء الموضوعية والمراجعة المتأنيبة المجتهدة ، حيث الادب ليس انعكاسا ثابتا ، لكنه نقد وحلم واقتحام . انها رحلة الاجتهاد الفلسفي الادبي المبدع من (التماثل الكئييب والامثالية المقيتة) الى قانون التعدد والتنوع في إطار الفكر الواحد والمرحلة الواحدة ... ولكن لنقد الواقعية الاشتراكية عندنا شأن آخر . .

* * *

فتيار الواقعية الاشتراكية في ادبنا بدأ خليطا متجانسا فكريا ، غير متجانس منهجا او جذورا او معالجة ، يقتبس من كل مصدر ، وبذهب صوب اية جهة ، ليجعل الادب الثوري في خدمة متطلبات حركة ثورية تصارع اعداء قدامى وجددا ، هدفه سياسي ، وقاعدته حياة الجماهير ، وثقافته موزعة بين شذرات تقدمية من تراثنا ، ومن اعمال بليخانوف وطومسون وهاراب ، ثم عرف تراث النقد الروسي عبر غوركي و مترجمات (الشرق) و (الثقافة الوطنية) وسواهما . . وانفتح فيما بعد على مرحلة اكثر تقدما من النقد الواقعي الاشتراكي الاوربي عبر اعمال كتاب يساريين اشتراكيين لبرالين (لويس عوض عمر فاخوري ، ريف خوري ، سلامة موسى) ، ومباشرة من كتب : أرنولدكنل ، آيان وات ، رالف فوكس . . دون ان تعدل اعمال هؤلاء طبيعة المعالجات والمستويات ، لا تنظيرا ولا تطبيقا ، بسبب سيادة الضرورات السياسية المحلية وثبات الهدف الواحد غير المتحقق . واتباع لكتاب يساريين عرب ان بنهلوا من ثقافة أوروبا ما خطا بحركة نقد الواقعية الاشتراكية خطوة اكثر نضجا وانفتاحا تجسدت في محاولات قضايا الشكل والمضمون ومراجعة التاريخ العربي الادبي بنظرة ماركسية جديدة على الدراسة الاكاديمية (مقالات الدكتور صلاح خالص) . . وتجسدت في ملاحقة الانار الادبية العربية قديمة ومعاصرة بسرعة تعليمية او تان نقدي اكااديمي في مقالات عبد العظيم انيس ، محمد امين العالم ، حسين مروة ، غائب طعنه فرمان ، عبد الملك نوري ، علي الشوك . . وكتاب مجلات الفكر اليساري المناضل .

وكان الرواد الجهولون المرددون دون بدبل أنضج : (لويس عوض) والرواد المنسيون بسبب الكبت الفكري (محمد حسين الشيبيني) وبضعة كتاب ديمقراطيين يساريين ، قد مهدوا لكل هذا بمراجعة

التكرلي ، فؤاد التكرلي ، علي الشوك ، أمجد حسين ، صالح جواد الطعنه ... وأضافوا الى ذلك الاستفادة من الترجمات وعيون النقد العربي الحديث ، وعالجوا - بجهود فردية مخلصه متشرة او موفقة ، مشكلات وظواهر ادبنا الحديث المتنامي منذ أواسط الستينات ، في ظل مرحلة سوداء متناقضة .. أتيج لهم فيما بعد ان يتجاوزوا (الانغماس اليومي) في ادبها ومشكلاتها ، فراجعوا تراث نقدنا التقدمي الحديث على تفاوت في المعرفة والتمثل والاستفادة .. وعمقوا من معرفتهم للتراث القديم .

ولم يكن الناقد الشاب فاضل ثامر بعيدا عن هذا الجو الرديء المتببس والمتفتح البازغ ، بل كان في القلب من تجربة الستينات واقعا وادبا ، دون ان ينتهي به ذلك الى التخطئ او الضلال .. واتاحت له معرفة الانكليزية خلال مرحلة الطلب الجامعي ان ينفرد عن نقاد جيلنا باقترب واع من عيون النقد العالمي الحديث تأثرا او اقتباسا او استفادة ، فتصافر ذلك مع التجربة الخاصة العامة في صياغة ملامح نزعة نقدية اكااديمية مستندة الى تراث الواقعية الاشتراكية الحديثة عالية وعربية وعراقية ..

ويكاد الناقد فاضل ثامر يتميز عن نقاد هذا الجيل ، وعن القلة القليلة من نقاد الواقعية الاشتراكية الشباب ، بصدق تمثله لتراثه النقدي المتطور والمنسجم والمتناقص ، وبصدق اسهاماته النقدية في معالجة الآثار الادبية العالية والعربية والعراقية . فالعشرات في نقده عفوية ، هي عشرات تراثه ، وعشرات التوظيف المخلص للنقد في خدمة أدب مرحلة صعبة صاعدة ، وهي عشرات الصراع الخاص بين أحلام الناقد ومطالب الفكر ، إضافة الى العشرات المهدودة المنبثقة عن الانسجام بين الادب ، موضوع النقد ، وبين المعالجات النقدية .

ان الدور الايدولوجي السياسي الرحلي للادب والنقد ، والجسد في فاعلية منهج واضح منسجم متكرر او متطور احيانا منبثق من قاعدة ايدولوجية ثقافية تتخذ الادب موضوعا لهدف لا أدبي ، دون ان تغفل شروط الادب وقوانينه ومشكلاته الخاصة ، وتغليب الحوار الفكري على (الجمالية) هو ما يميز نقد فاضل ثامر ويؤشر امتيازاته وسليباته.

واسهامات فاضل ثامر النقدية نشطة متجانسة الفكر والمنهج غالبا .. متباينة الموضوعات والمستويات ، بسبب سعة الثقافة وامتداد الهدف عبر آثار لا متجانسة ، وبسبب تعاقب زاويتي الحب والرفض في الرؤية النقدية .

في (الباب الاول الخاص بنقد القصة العراقية الجديدة) نرى القصة عنده أداة ادبية اجتماعية فاعلة تأثرت بظروف المرحلة وينبغي أن تؤثر في مسارها لذا يحق للناقد ويجب عليه ان يحكمها بمنظور ايدولوجي واضح الطريق والغاية وازاء الآثار الناصجة المعبرة عن انشغال بشرط حضاري او هاجس فلسفي ، لابد للنقد الادبي من ان يكون حوارا فكريا لا يفغل دور الشروط الجمالية وعلاقتها بالرؤية (أزمة البطل في : الشحاذ - زوربا : صراع النموذجين الحسي والتجريدي) ، فعلى قدر تعاطف اهمية وتأثير دور الادب العظيم ، أدب الاعلام خاصة ، في المسيرة السياسية الاجتماعية ، وتغلب الضرورة الفكرية بعهد او بحماس عفوي ، في تعزيز رؤيا ما ، او رفض أخرى . ان الاكتشاف النقدي موظف لخدمة هدف الناقد الايدولوجي الادبي ، ويسمي الاثر موضوعا ، والنقد أداة .. وتغير الواقع هدفا .

ولا يتعد الباب الثاني (واقع الشعر الستيني) عن الباب الاول معالجة ومستوى وغرضا ، فالقصة الستينية والشعر الستيني نتاج مرحلة واحدة ، وجهد جيل ادبي متحمس مجرب مجدّد متخبط متعثر متمرد ملتزم ، فلا بد من تصفية تناقضاته الادبية في رؤية منسجمة موجهة تغفل اغلب السلبات فتحيلها ريادة او جرأة او تجديدًا ، وتجعل من شرط الوعي والاخلاص والانتماء الادبي امتيازًا ومائزة ، وتحيل آثار الضغوط السياسية المفروضة (رؤيا جديدة طرحها القاص) ، والاندفاع العميء لدى اغلب القصاصين (اشكالا تكنيكية وتفسيرية استخدمها بجرأة وشجاعة) ، والتعبير اليومي السهل عن الاحزان اليومية الصغيرة ، احزان الضياع والحلم والخيبة (رؤيا فلسفية

الادب الانكليزي وفق فهم ماركس : (الادب الانكليزي الحديث : عوض) او بارساء الخطوط العامة للمبادئ النقدية الجديدة : (مقالات الشببي) او بأضائة عيون التراث الادبي الاوربي او العربي بضوء جديد .. وسرعان ما توالى جهود جيل من كتاب ونقاد وباحثين ماركسيين عرب وعراقيين لتصل بنقد الواقعية الى مرحلة النضج اللاتقي (اسهامات الدكتور صالح جواد الطعنه وغير واحد من النقاد العرب) ، تلك المرحلة التي حملت نقادا مخضرمين غير ماركسيين على تعديل آرائهم او تطويرها اللاحق ، وسمحت فيما بعد - بتأثير مباشر من الكبت السياسي - بمراجعة نقدية صارمة لتراث هذا التيار : (الواقعية الاشتراكية في النقد العربي المعاصر : غالي شكري) ثم مهدت لظهور جيل جديد من النقاد الشباب اكثر نضجا وخبرة وحرية (و صبرا) وديمقراطية : (محي الدين محمد ، سامي خشبة ، صبري حافظ ، غالب هلسا) يواكب ادب الواقعية الاشتراكية في مرحلة نضجه واستقراره و (احزانه العربية) وبضوء الآثار الادبية بأضواء مراجعة اهدأ واسطع واعمق .. وانعكس تأثير ذلك كله في ادب ونقد ادباء ودارسين مخضرمين وجدد لا يلتزمون الفكر الماركسي ، لكنهم لا يتنكرون لانجازاته الادبية او النقدية ، بل ويستلهمون مبادئه النقدية الاساسية الصحيحة ، وقد باتت بدهيات لا يمكن انكارها ، وينتفون بانجازاته النقدية الناصجة قديمة او جديدة ، ما دامت ادوات مسعفة في الرصد والتحليل والتقييم والتوجيه تستوي عندهم الانجازات الروسية والاوروبية والعربية .. لقد باتت الواقعية الاشتراكية جزءا اساسا واضحا او متخفيا ، مقتبسا او معدلا ، لا من أدبنا الحديث ونقدنا الحديث فحسب ، بل ومن جهود الدارسين التقدميين على اختلاف في مستوى الفهم والتمثل والمعرفة والانجاز ..

وهكذا عاد نقد الواقعية الاشتراكية في ادبنا العربي يستقبل تأثيرات وخبرات ومراجعات مختلفة ، من تراثه العالمي والعربي ومن تراث النقد والدراسة الادبية عالية وعربية ، ليعود - بعفوية - مرة اخرى عودة النضج الى ينبوعه الاول الرحب : غوركي .. عبر رحلة شاققة من الكبت الفكري والمراجعة الذاتية والانفتاح الرحب او الضئيل على مصادر ثقافية جديدة مختلفة والانفتاح الذكي او البطيء من اعمال واقعيين اشتراكيين اوروبيين اغنوا الاصول بأضافاتهم المقبولة او المنحرفة (برشت ، لوكاش ، فيشر ، غارودي ..) ولم يتحقق كل ذلك بمعزل عن مصاعب وتجارب النضال السياسي والمعارك الفكرية التي خاضتها الماركسية على اكثر من صعيد ، واسهم فيها كتاب وفنانون اوربيون معروفون ادعوا لانفسهم ماركسية جديدة اكثر (دقة) من الماركسية الكلاسيكية (سارتر ، كامي ...) واتاحت الترجمة للجميع ان يعرفوا جذور ومصادر وعشرات الواقعية الاشتراكية في الادب والنقد .. مما عجل ببدء مرحلة النضج الجديد ، ورسخ الايمان بفكرة ان (الامل الثوري صورة محرقة قوية ، وبحرض الفن اندفاع حياة حار وبطولي ويسنده فينطلق بدوره الى غزو عالم افضل ويسلك بزم طرقا جديدة) كما يقول هنري أرفون .

ولكن .. لنعد الى موضوع هذه المقالة ..

- ٢ -

وفاضل ثامر واحد من نقاد جيلنا الذي انفتح - في ظل مرحلة شاذة صعبة - على مشكلات وتجارب الواقع والادب ، واسهم منذ البدء ، عبر تجارب خاصة عامة متباينة الجذور والآثار ، في صياغة ملامح نقدية جديدة منفتحة على انجازات الادب والنقد الحديث اوروبيا وعربيا وعراقيا .. فلم تتح له الظروف اليومية الصعبة ان يعرف بدقة تراثنا النقدي ، القديم منه او القريب الرائد المتناثر في الكرايس والمجلات والجرائد التقدمية منذ العشرينات . ان آثار الادب الحديث مترجما او موضوعا ، لا التراث النقدي العربي والعالمي كانت في الغالب (خلفية) النقد الشاب ، فلم يتح لاي من نقادنا الشباب ان ينتفع حتى بكتابات : أيوب ، محمد حسين الشببي ، نوري ، فرمان ، حسين مردان .. بل أفادوا من النقد الصحفي المعاصر الناصح الذي كان في متناول الايدي ، والمتنامي في ظل الصراع وجهود المؤسسات : نقد : الطاهر ، صلاح خالص ، نهاد

شاملة) ، والاتصال بين الأجيال تطورا مدهشا جريئا ..

ان فاضلا في حالي الانتكار والاعجاب ، ناقد متحمس منكر او منبهر ، تقوده وحدة المنطق والهدف وتشابه هموم المرحلة في معظم اعمال أدبائنا الشباب ، وبتأثير وحدة النهج التطوي على اخطاء موروثية وجديدة ، الى اغفال المراجعة الذاتية ، وتغليب الرؤية الوحيدة المفضية الى نقد الطريقة الوحيدة المستهلكة ، والنتائج المعدة سلفا دون تصميم مسبق . ان الطريق الوحيد المفتوح على الهدف الوحيد الكبير يحكم المعالجة النقدية ويكاد ينحرف بها دون قصد الى التزمت او الضبابية .. يستوي في ذلك نقده لقصص جمعه اللامي وعبد الاله عبد الرزاق ورواية (زوربا) وقصص موسى كريدي وغازي المبادي ، ونقده لشعر عبدالصبور واليوت وسامي مهدي وسلمان الجبوري . ان العثرات تتفجر في غضب هادئ او اعجاب ذكي ، حتى لو التفت الفضب مزية فنية هنا ، والاعجاب منقصة هناك : (نقد اعمال : فاضل العزاوي ، عائد خصبالك ، موسى كريدي ، حسب الشيخ جعفر) .. وينتهي ذلك الى لغة نقدية جميلة رشيقة مجازية حين يفضي العشق المستغرق في رؤيا الشاعر حسب الشيخ جعفر وحسن تفهم مراحلها الادبية الى انجاز نقدي بكر ... لكنه ينحرف - في ظل الاسهامة المرحلية المنمسة دون صمود في اخطاء المرحلة - الى لغة نقدية شائعة مستعارة دون ضرورة من قاموس النقد الفرنسي الحديث ، نقد ألبيرس في (التيارات الادبية في القرن العشرين) ، فنصدم بمجازاة سهلة واستخدام خاطئ لمصطلحات مثل : رؤيوية ، تشكيكية .. حسية دينوية ، ميتافيزيقية صوفية ، الرؤية التعبيرية ، الابعاد والمسافات المعمارية والتشريفية ، تشكيل معماري ... (ص ١٨٣ - ١٩٤) .. يهدم لهذا الزلق الخطر عمومية المسح النقدي ، وقسر التصنيف ، وانبهار بمعاصرة صادقة او كاذبة ، وحماس نفسي لفظي أيديولوجي نقدي ، وشغف بالمقارنة وتقضي جذور شعرية لم يحسن الشعراء فهمها .. وازاء هذا المزلق لابد من مكابدة الحماس ، والسيطرة على زمام رؤيا نقدية متبلورة ، كي نظفر بالدقة المطلقة ، دقة علم الادب في اللغة التي بدونها يضيع كل مكسب ، ويهدم كل بناء ، وتغيب كل فائدة .. ان فاضلا اذ يخلط - بحماس - بين دلالات المصطلحات ، او يجتلبها دون ضرورة نقدية ، هو فاضل الذي عرف عيون النقد العالمي الحديث ، وادرك ، كما لم يفعل ناقد شباب عندنا ، الفروق الدقيقة بين مصطلحات نقد الواقعية الاشتراكية : الطريقة ، المنهج ، النظرة ، المدرسة .. الخ .

يملك فاضل ثامر - اذ يتحرر نقده من ضرورات المرحلة وتدفق الحماس المصيب - حرية اكبر وشجاعة في التفكير النقدي تغني القراءات الاساسية وتمنحها نكهة شخصية توميء الى امكانات اصالة نقدية متكئة وواضحة ، على استحياء وقلة ، ويملك طاقة الناقد المتمرس المخلص : استخلاص القوانين الادبية او تأكيدها عبر المعاناة الشخصية . انه في نقده لشعر حسب الشيخ جعفر وفدوى طوقان وصلاح عبد الصبور وفوزي كريم ، ناقد انطباعي واقعي معاصر مثقف يلتقي بانضج ممارسات نقادنا المعروفين .. يجمع بين الشرح والتحليل والتقييم السديد . انه ناقد عاشق او متفهم لا يسمح للتوجيه في النقد ان يقصيه عن اسرار الرؤيا الشعرية وخط التطور الداخلي للتجربة الشعرية ، وبخاصة اذا كانت كرؤيا حسب الشيخ جعفر رؤيا ناضجة معاصرة وحضارية ومنتمية بطريقتها المتفردة ، او كرؤيا فدوى طوقان متطورة من الفئائية الرومانسية الى شعر المقاومة ، او كرؤيا فوزي كريم تبدأ من الاشياء اليومية الى عالم محايد محيط منحاز حالم ، او كرؤيا عبدالصبور ثرية بهاجس غنائي درامي انساني موزع بين الفئائية والدراما وجامع بينهما في مسرح شعري يضع الناقد المثقف يده على تأثره بمسرح اليوت .. فهو هنا ناقد موجه ، لكنه في الوقت ذاته ناقد اكاديمي مدقق لا يعبر الحشائش الى النتائج ، بل يحشد بتفاصيل وادوات اكاديمية ويحسن اغناء عمله بها .. بينما كان في دراسته لقصص الستينات يخلط ، بتأثير المطلب الايديولوجي ، والفهم القاصر الموروث لعلاقة الادب بالواقع ، بين الفكر والانجاز الفني ، بالرغم من محاولته الصادقة - لكن التوفيقية الملققة - ان ينسق بينهما عبر التشجيع والتحفيز ،

الفهم والانتكار ، وعبر مقولة وحدة الشكل والمضمون .. وهي مقولة لم تعد ذات جدوى في النقد الحديث ، لان العمل الادبي الناضج ليس شكلا ومضمونا متحدين ، فهذا تكرار لقولة اللفظ والمعنى القديمة الرثة .. لكن العمل (حقيقة فنية داخلية مركبة منسجمة عبر جدل حي) ، ثمرة انصهار وتفاعل سيكولوجي جمالي بين عدة عوامل موضوعية وذاتية ، وينتهي هذا التفاعل - بسر الموهبة الخاصة الناضجة - الى بناء لغوي ذي جمال داخلي خاص وقوانين متفردة بعيد تشكيل حقيقة ما فتمنحها وجودا جديدا ، وجودا ادبيا موضوعيا .. واذا بتالق فاضل ثامر في دراسته لشعر حسب الشيخ جعفر يقدم دليلا اخر على ان الافكار الايديولوجية في النقد تعجز عن ان تكون بدلا عن الحس الجمالي المرفه القادر على التقاط سر العمل او قانونه ، لانه حس مثقف مشبع بفهم شعري صادق لمسار حركة التاريخ وحركة الجمال في توصلهما الذي يصنع تاريخ الادب العظيم ..

وحين يلجأ الناقد في معالجته لادب عبد الصبور وفدوى طوقان ، ودراسته لفن الحكاية الشعرية الى اسلوب المقارنات والاقتراسات والتداعيات المنهجية المنضبطة بخطة اكاديمية موسعة يؤكد انه في اخلاصه لهدف التوجيه والتعليم ، وبتأثير الماضي الجامعي وشيوع النزعة الاكاديمية لدى اعلام النقد في اثارهم الكبيرة ، لا يتردد ، من اجل ان يوميء الى مستقبل يقترحه للحكاية الشعرية مثلا ، ان يرث محاسن الاكاديمية النقدية التراثية التاريخية ، وليلد احيانا - اذ يقتبس دون طائل - على عناصر ثقافية ادبية لم تهضم بعد ، لذا تنطرح مع مختلف الاعمال المنقودة بيسر لا مبرر له .. يسر كنا نهجل ضلاله يوم كنا ما نزال فتيانا نهيم القراءة قريبا العهد ببحوث الجامعة ومحاذيرها المشروعة وشروطها الاكثر مشروعية ..

يؤكد فاضل ثامر في افضل مقالاته ان نقد الواقعية الاشتراكية الذي يمثل انصاع صورة في نقد القصة والرواية ، ليس نقد الطريقة الواحدة ، ولا حتى النهج الثابت ، فالاولى مستكره ذميمة في ارقى الاوساط النقدية السوفيتية ذاتها ، بله العالية الحديثة .. والمنهج المنشق عن فلسفة متجانسة غنية يمكن ، بجهد الناقد الذكي المخلص المتمرس ، ان يعدل ويطور لصالح (رؤيا نقدية متجانسة) ، فلا ينتهي الى الجحود ، ولا يسقط اذ يساعد فهمه واستقلاله ، في التخطيط والبدائية .. فالرؤيا النقدية - وان لم تستند الى خلفية فكرية موحدة - تجد ضرورة مسعفة ان تستفيد من اكثر من منهج دون ان تنحرف الى الفوضى . ان المهم - يقول بورسوف - هو (الحقيقة الفنية) لا الافكار .. وتقدم الانار النقدية الاشتراكية الجيدة الدليل تلو الاخر على ان الرؤيا النقدية الحققة هي التي تلتقط هذه الحقيقة وتضيفها دون عسف الى تراث الادب والنقد ، فلا تبدأ بتقديم نظري صحيح لتصل الى تحفظ فني يخفي تحفظا فكريا عبر تطبيق قاصر ملتو مقنع بالفطنة النقدية ، ولا تبدأ كما في دراسة (زوربا) بالثناء على المجد الفني لتنتهي عبر التحليل الفكري او الجمالي الى ادانة الرؤيا في العمل بدلا من ان ترى فيه تفسيرا ادبيا لموضوع انساني . ان الجدل في حركة التاريخ والواقع والطبيعة والتراث ينصهر في النقد المبدع - وان لم يحدد بهدف او منهج - بفهم دقيق حساس لحقيقة الجدل في الابداع الفني .. ان الخبرة الجمالية لا تعود تعني شيئا في النقد الادبي حين يكون ذبلا لجعل المضمون او صحة الرؤية او وضوح الفكر فيصلا وهدفا ، كما ان الحماس الفني ، وان يكسب صادقا ، مهلكة في النقد حين يفضي الى الخلط والوهم والعمى والاجتلاب والحشر والاقتسار ..

وما زال الناقد فاضل ثامر موزعا متباينا في كتابه ، يشير الى تجدد مساوي الواقعية الاشتراكية لاكثر من سبب . ان الجسرة والثقافة والاكاديمية ونبل الغاية ليست شيئا اذ تباعد بين الناقد وبين الاصفاء الى اسرار وقوانين الادب ، واذا تبقى المعالجات النقدية متباينة بنظر الاهداف والزوايا . ففاضل اذ يدين العمل منذ البدء ليجعل التحليل المستفيض دعما قانونيا للحكم : (أزمة البطل في الشحاذ ، زوربا) ، واذا يدين العمل على مستوى الفضل الفني والاصالة المفضية الى كثرة أو رداءة التأثير ... فهو في فصله عن شعر حسب

لا ادبية ، فيوجه الممارسة النقدية توجيهها خاطئاً مسرفاً لينقذ الكاتب التقدمي المعروف ، وربما دون قصد مسبق ، من الاتهام والسقوط والتخلي ، حتى لو تم ذلك بدبح الاعمال الادبية وقتل الحقيقة التاريخية والفنية . .

ومع ذلك ، يبقى في افضل فصول : (معالم جديدة في ادبنا المعاصر) ما يؤكد ان فاضل ثامر ، لو واجه عمله بارادة متحررة- لا تضحي بالتزاماتها الفكرية ولا بقوانين الادب ، قادر على ان يؤدي في نقدنا الادبي الحديث ما لا يؤديه ناقد آخر في اتجاه الواقعية الاشتراكية الحديثة ، فهو ناقد صادق مخلص مثقف متمرس توفرت له عناصر الابداع النقدي ، ولا ينقصه الا ان يكون ابدا اكثر حرصا على الاقتراب من اسرار الادب وقوانينه ، اي اكثر قربا من المعاصرة في النقد ، ونقد الواقعية الاشتراكية ذاته ، في تراثه الكلاسيكي وانجازاته الضخمة الجديدة . .

بغداد

الشيخ جعفر وريث واقعية انطباعية شعرية تحليل تناقض الشعر انسجاما ، والفوضى وحدة داخلية ، وما هو حلمي أسطوري الى واقعي تاريخي ، وتستثمر ما تحتاجه من انجازات الادب والنقد لصالحها دون قسر أو تعالم لامتلاك اكبر رفعة من الحقيقة الادبية . . لكنه - بعد هذه الرحلة الخصبة ، رحلة تراثه النقدي وتجربته معا يعود الى تغليب الهدف والفكرة المسبقة ، لينقذ كاتباً مثل نجيب محفوظ في (حب تحت المطر ، الكرنك) من تهمة الصورة القائمة وهوة اليأس والسقوط السياسي والفني . انه في مقالته الاخير (الاديب المعاصر - تشرين اول ١٩٧٤) قاض منحاز يبدأ بمناقشة التكنيك الكاشف عن تناقض الشخصيات عبر الافئدة والتفاصيل المعقدة لينتهي الى ان الروايتين تكتفان قانونا جديلا تاريخيا لم يتكشفه في الروايتين ناقد آخر : انهيار جيل الهزيمة وولادة جيل نوادي جديد بين الانقاض . . فالروايتان في وهم الناقد المشفق من فساد رؤيا نجيب السياسية تكشفان عن رؤية فكرية عمادها فضح عوامل الهزيمة ونتائجها لنقف مع المؤلف أمام قوى المستقبل النامية بشقة وتفاؤل . . هكذا يعود الخطا القاتل باستسلام الناقد لضرورة

صدر حديثا

نجران تحت الصفر

رواية بقلم

يحيى يخلف

تحدث هذه الرواية عن انتصار انسان القرن العشرين المكبل بقيود القرون الوسطى . . ان نجران ، تلك البلدة العربية البعيدة ، المسية في جنوب الجزيرة العربية ، كانت قاعدة للثورة المضادة ، ابان الصراع العنيف في اليمن بين قوى التحرر والثورة من جهة ، وبين قوات الامام التي تدعمها الرجعية والامبريالية من جهة أخرى .

ولكنها في الوقت نفسه ، كانت ارضا للتحدي البطولي والمخاض الاجتماعي والنزوع الى الحضارة : ففي عصر النفط ، يعرف العمال البسطاء كيف يصدون ، ويعرف العبيد كيف ينتزعون الحرية ، وتعرف السواعد التي تجري في عروقها الدماء الساخنة كيف تنتصر على الجلادين والجواسيس والمرترقة .

ولقد اتيح للكاتب الفلسطيني يحيى يخلف ان يعيش جزءاً من تجربة تلك المرحلة ، وهو في هذه الرواية يدلي بشهادته .

منشورات دار الآداب - واتحاد - الكتاب والصحفيين الفلسطينيين